مولود بلا هوية

وصلت مطار فرانكفورت قادما بالقطار من مدينة بون في طريقي عائدا إلى واشنطن.. كانت الرحلة بين بون وفرانكفورت ممتعة كالعادة، حيث كان الجو صافيا بالرغم من أن الرحلة تمت في أواسط شهر شباط (فبراير)، وهذا سمح لي بالتمتع برؤية القلاع القديمة التي تقف على جانبي نهر الراين، وإلقاء نظرة على كروم العنب التي تنتظر الربيع بفارغ الصبر، والسماح لخيالي بتذوق طعم النبيذ الذي تنتجه تلك الكروم كل عام. لعب نهر الراين دورا هاما في تنشيط التجارة على طول مجراه وعبر قرون بلا عدد. وبالرغم من تقدم وسائل النقل والمواصلات كثيرا في العهود الأخيرة، وقيام القطارات بنقل معظم البضائع بين مختلف الدول الأوروبية، إلا نهر الراين بقي محافظا على موقعه ودوره في نقل الكثير من البضائع وتوفير المتعة للسياح والعشاق.

كان مطار فرانكفورت هادئا على غير عادته، وهذا جعل الموظفين يشعرون بنوع من الاسترخاء والراحة، وهذا شجعهم على تقديم الخدمة لزبائنهم بشكل أفضل، إذ غابت عن ذلك اليوم ضغوط العمل الاعتيادية. سألني موظف الاستقبال الذي استخرج لي بطاقة ركوب الطائرة السؤال التقليدي، بينما كانت تغطي وجهه ابتسامة سارحة كغيمة صيف تائهة: هل هناك شيء آخر يمكنني أن أفعله من أجلك يا د. ربيع. شجعتني تلك الابتسامة الهادئة على القول نعم.. يمكنك أن تنقلني من "درجة رجال أعمال" إلى الدرجة الأولى.. إن شركة لوفتهانزا هي شركتي المفضلة، وكما ترى أمامك على شاشة الكمبيوتر، أسافر معكم خمسة رحلات كل سنة على الأقل، معظمها عبر المحيط. أجابني الموظف بأدب قائلا بأنه لا يملك صلاحية ترفيعي إلى درجة أعلى، لكنه سيسأل المدير الذي يملك تلك الصلاحية. دخل غرفة صغيرة خلف مكتب الاستقبال، وعاد بعد دقيقتين تقريبا ومعه فتاة شابة جذابة، قدمت نفسها

بصفتها مديرة المحطة، ثم قالت يسعدني جدا أن أنقلك إلى الدرجة الأولى.. لدينا مقاعد شاغرة كثيرة هذا اليوم، وإن من واجبنا تقديم مثل هذه الخدمة لزبائننا المخلصين من أمثالك.

تأخر إقلاع الطائرة في ذلك اليوم لمدة ساعة تقريبا، وذلك خلافا لما تعودت عليه من شركة لوفتهانزا، لكن الرحلة كانت مريحة، والخدمة ممتازة، والمفاجأة التي كانت تنتظرني على متنها تاريخية. بعد تناول طعام الغداء، وقراءة بعض المقالات، وتدوين بعض الأفكار التي كانت تجول في رأسي منذ مغادرة تونس قبل أيام، شعرب ببعض الأرهاق. لذا قررت أن آخذ غفوة، علما بأنني قلما نجحت في استدراج النوم إلى عيني على متن طائرة. ولكن قبل أن يغلبني النعاس، سمعت صوت قائد الطائرة يسأل عما إذا كان بين ركاب الطائرة طبيب، وذلك لأن أحد الركاب كان بحاجة لمساعدة طبية، نظرت حولي وتجولت بعيني في الدرجة الأولى، إلا أنني لم أر شخصا يبدو عليه المرض أو الألم.

إن تقادم فصل الشتاء في ذلك الوقت من السنة، وسوء الأحوال الاقتصادية تسببا في انخفاض عدد السياح الأمريكيين، وهذا جعل طائرتنا تحلق في الجو بنصف حمولتها الإعتيادية تقريبا. وفي الدرجة الأولى بالذات، لم يكن هناك سوى 5 مقاعد مشغولة من أصل 24 مقعد.. كانت مقاعد الدرجة الأولى موزعة على 4 صفوف من الأمام إلى الخلف، و 3 صفوف من اليمين إلى اليسار، مما جعل كل صف يتكون من 6 مقاعد، موزعة على 3 مجموعات، إثنان بالقرب من كل شباك من شبابيك الطائرة، وإثنان في الوسط يحدهما ممران لتحرك الركاب وخدمتهم. جلست في المقعد الأول في أقصى اليمين، وجلس شخص آخر في المقعد المقابل في أقصى اليسار، وجلس الأشخاص الثلاثة الآخرون في الصف الخلفي. وهذا جعل المقاعد الأربعة على يساري شاغرة.

بعد غفوة استغرقت ربما ساعة، استيقظت على أصوات سمعت عنها الكثير، ولم أسمعها أبدا من قبل.. أصوات كان من المُستغرب جدا أن تُسمع على متن طائرة تحلق في الجو. كانت الأصوات مبحوحة كأنها تختنق من البكاء، تختلط فيها اللغة العربية باللغة الألمانية باللغة

الإنجليزية. ومن بين تلك الأصوات، سمعت صوتا آتيا من أعماق التاريخ يرسم لوحة ثقافية عربية طال غيابها.. صوت يقول "شدي.. شدي.. شدي.. الله.. الله". ظننت لأول وهلة أنني أحلم، بل أهلوس، وأنني أحاول استحضار تاريخ وحياة مجتمع سمعت عنه ولكن لم أمر بتجربة حياته. وحين فتحت عيني، اكتشفت أن المقاعد الشاغرة التي تفصلني عن الشخص الذي يجلس في أقصى اليسار أصبحت منطقة مغلقة ومحظورة، تحيط بها 6 مضيفات يُمسكن ببطانيات عزلت المقعدين الكائنين في المنطقة الوسطى عن بقية المقاعد وركاب الطائرة. وقبل أن أتبين الأمر، سمعت صيحات شدي.. شدي.. شدي، أله.. أله.. أله تتكرر داخل المنطقة المحظورة. أيقنت عندها أن حلمي كان حقيقة ولم يكن حالة هلوسة مرضية. إدركت أن هناك إمرأة عربية تعيش حالة مخاض على بعد خطوة واحدة مني.

كانت المضيفات ترتجف من الرهبة، وكانت "ماريان"، الفتاة الوديعة التي تقوم بخدمة ركاب الدرجة الأولى تبكي ودموعها تنهمر بغزارة دون أن تستطيع مسحها عن وجنتيها الورديتين. وإلى جانبي، على المقعد الملاصق لمقعدي تماما، تدلتْ مؤخرة إمرأة ضخمة، بينما كان رأسها ومعظم جسمها داخل المنطقة المحظورة. أدركت حينئذ أن المرأة الضخمة تقوم بمساعدة المرأة الحامل أثناء عملية الولادة.. وهنا بدا لي كأن كل شيء كان مُعدا سلفا، وأن كافة الممثلين تجمعوا في نفس اللحظة، في نفس المكان، على نفس الطائرة لتمثيل دور الطبيعة في الخلق، وقدرة الإنسان على التكاثر حتى على متن طائرة تسابق الريح وتعبر المحيطات.

وبينما كنت أنظر بدهشة لما كان يدور حولى وأمام عيني، رفعت ماريان يدها محاولة مسح بعض القطرات المتساقطة من عينيها المغرورقتين بالدموع، فإذا بي ألمح إمرأة عربية تجلس على طرف المقعد البعيد من المجموعة التالية، تلبس ثوبا أسود اللون، تتخلله خطوط خضراء بلون عيونها.. عينان واسعتان كصحراء بلا حدود، خضراوتان كربيع ناضج بلا ورود، تحلقان في سماء صاف بلا غيوم.. كانت تلك المرأة هي صاحبة الصوت القلق الذي يصيح بين الحين والآخر قائلا، شدي.. شدي.. شدي، الله.. الله.

بعد ربع ساعة تقريبا، صاحت المرأة الحامل صيحة كبيرة جعلت شعر جسمي يقشعر، تبعتها على الفور صيحة طفل يعلن اقتحامه لعالمنا الغارق في مشاكله حتى أذنيه، وانضمامه لقائمة ركاب طائرتنا دون أن يحمل جواز سفر، ودون أن يحصل على بطاقة لركوب طائرة، ودون حقيبة سفر.. راكب بلا اسم، وبلا هوية. وبينما صاحت المرأة المرافقة بصوت خافت تشكر الله وتحمده، انطلق صوت المرأة الملاصقة لي يقول باللغة الإنجليزية ولد.. إنه ولد. أما ماريان فقد عادت تواسي دموع الفرح المتساقطة من عينيها الزرقاوتان كثلوج شتاء أدماها دفء الربيع فسالت لتروي الأرض وتنبت الزهر وتجدد الحياة.

نظرت في تلك اللحظة لساعتي، فإذا بها تشير إلى السادسة والنصف بتوقيت فرانكفورت، أي الثانية عشرة والنصف بتوقيت واشنطن. وهنا أدركت أن الطفل ولد في منتصف الطريق بين ألمانيا وأمريكا تقريبا، وبالتالي فوق منطقة من المحيط الأطلسي لا سيادة لدولة عليها. وحيث أن القوانين الألمانية، وذلك بعكس القوانين الأمريكية، لا تمنح الجنسية الألمانية لمن يولد فوق أراضيها من الأجانب، أو على متن طائرة أو قطار ألماني، فإن مولودنا الجديد جاء ليبدأ حياته إنسانا بلا هوية، ومواطنا بلا جنسية.

توقفت طويلا أمام الحقيقة الغريبة الماثلة أمامي، سرح ذهني بعيدا يفكر ويتخيل ويحلم، مما دفعني إلى التساؤل عن مصير مثل هؤلاء الأطفال، وعما إذا كان من مصلحة البشرية أن يسن المجتمع الدولى قانونا خاصا بهم، يمنح كل طفل يولد في ظل ظروف مشابهة جواز سفر عالمي وجنسية إنسانية لا تربطه بأرض أو وطن غير الطبيعة، ولا تقيده بهوية غير إنسانيته.. إن قانونا كهذا من شأنه أن يخلق مواطنين أحرار يتنقلون من مكان لآخر حاملين راية الحرية، يتكلمون باسم الإنسانية، لا ينتمون لوطن معين، لا يدافعون عن مصالح وطنية أو طبقية، لا يَقتُلون ويُقتَلون باسم هوية، ولا يموتون في سبيل إيديولوجية لا تستهدف غير قمعهم وكبتهم وتكبيل عقولهم وتزييف إرادتهم.. مواطنون يتجاوزون الحقد والضغية والجشع، ويؤمنون بالسلام والعدل وتصالح الإنسان مع الأرض والسماء.

بعد أن قامت المرأة الضخمة بأداء مهمتها كاملة، أخرجت رأسها من المنطقة المحظورة، وهناك رأيت وجها بشوشا وابتسامة كبيرة كلها تفاؤل وأمل وفرح. ولما كنت أقرب الناس من مكان تواجدها، فقد كنت أول المتحدثين إليها.. سألتها عن مهنتها واسمها وأسباب تواجدها على متن تلك الطائرة في ذلك اليوم. أخبرتني بأن اسمها "مارثا"، وأنها من ولاية بنسلفانيا، وتعمل ممرضة وقابلة قانونية في آن واحد. كما أخبرتني بأنها تعرف بعض الكلمات العربية المتعلقة بمهنتها، تعلمتها أثناء عملها ضمن بعثة "لجنة اللاجئين الأمريكية" التي قامت بمساعدة بعض الأرتريين الذين لجأوا إلى السودان إبان حرب التحرير الأرترية، وأنها كانت عائدة من أرتريا بعد زيارة أصدقاء أرتريين تعرفت عليهم في السودان. وطوال ما تبقى من الرحلة، انشغلت مارثا في أداء مهمتها، ترشد الأم، تساعدها على العناية بالمولود الجديد الذي كان الأول لأمه، وتقوم بتعبئة الأوراق القانونية التي سلمها لها قائد الطائرة، وتدوين ملاحظات غير عادية لحادث غير متوقع كي تضمها لأعز ما كان لديها من ذكريات.

وبعد تنظيف الطفل، ولفه في فوطة، واستقراره في حضن أمه، أزيلت الحواجز وفُتحت المنطقة المحظورة. وعندها رأيت الأم تجلس هادئة في حالة استرخاء، دون أن يبدو على وجهها تعب أو قلق، يكسو جسمها الممتلئ ثوب أسود طويل تتخلله خطوط زرقاء. قمت من مكاني.. تقدمت من السيدتين، سألت عن صحتهما وصحة الطفل، وعما إذا كانتا بحاجة لمساعدة. ومن خلال تبادل الحديث تعرفت على "سعاد" و"زهره" القادمتين من الكويت. وحين سألت سعاد عن الاسم الذي تنوي أن تعطيه لإبنها، قالت دون تردد "فهد". سألت سعاد عما إذا كان ميلاد فهد قد جاء نتيجة لخطة استهدفت أن يولد في أمريكا كي يحصل على الجنسية الأمريكية، أم مجرد صدفة. أجابتني قائلة إنه جاء قبل موعده بثلاثة أسابيع.

وقبل أن تهبط الطائرة في واشنطن، تحدثت مع قائد الطائرة الذي قال بأن تلك الحادثة هي الأولى من نوعها بالنسبة له. أما ماريان التي ولدت في مدينة سالزبورج النمساوية، تلك المدينة الهادئة التي احتضنت بحنانها ولونت بسحرها ألحان الموسيقار الخالد موتزارت، فقد

استمرت دموعها في التدحرج على وجنتيها، مما جعلني أسألها عن سبب استمرار البكاء وقد تم كل شيء على مايرام. هذه دموع الفرح والسعادة، قالت ماريان.. السعادة لأن حظ سعاد وإبنها كان عظيما بوجود مارثا في الوقت المناسب، في المكان المناسب.

عندما هبطت بنا الطائرة في مطار العاصمة واشنطن، لم يُسمح لأي شخص من ركابها بالخروج قبل أن تنزل سعاد وحاشيتها من الطائرة. ولذا كان أول شخص يدخل الطائرة طبيب أمريكي تتبعه ممرضتان، بينما كانت سيارة إسعاف تقف على المدرج بجوار الطائرة. استقبلت مارثا الطاقم الطبي وقرأت عليهم المعلومات التي دونتها، حالة الأم الصحية جيدة، حالة الطفل ممتازة، الولادة كانت سهلة وجاء الطفل كاملا، وحسب اعتقادها ولد في موعده، كما زودتهم بالساعة والدقيقة التي ولد فيها.

وبينما كان الطبيب يتبادل الحديث مع مارثا، جاءت ماريان تحمل معطفي الذي كان معلقا في الخزانة طوال الرحلة، بينما جاءت مضيفة أخرى تحمل فساتين مزركشة حديثة الموضة لكل من سعاد وزهره.. كانت سعاد وزهره تنويان على ما يبدو، وكما هي عادة معظم نساء الخليج، ارتداء تلك الملابس قبل النزول من الطائرة. شكرت مارثا وقلت لها مودعا آمل أن تكوني قد كسبت اليوم أصدقاء جدد من الكويت. ابتسمت مارثا ابتسامة ساخرة خجولة وقالت، إنهم لم يسألوني حتى عن اسمي. نعم، كان بودي أن أكسب أصدقاء جدد، وأن يعرف فهد حين يكبر أسم المرأة التي لمست جسده قبل غيرها، وتنصتت على دقاق قلبه واطمأنت عليها.. لكن هكذا هي الحياة.. أهم شيء فيها هو الرضا عن النفس، وهذا لا يتأتى إلا حين يقوم الإنسان بأداء المهمة الإنسانية المنوطة به كما يجب.. أتمنى لسعاد وفهد حياة سعيدة ومستقبل جميل.

د. محمد ربيع

www.yazour.com